الاسلام إصلاح لا ثورة

الحمد لله ، هو ولى الرشاد والتوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا خير إلا منك ، ولا نصر إلا بك ، ولا اعتماد إلا عليك : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبدك ورسولك ، أصلح الفساد ، وأنقذ البلاد ، وهذب العباد : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه السلام ..

فى الأمة الإسلامية قوم تربوا على غير مبادئها السليمة وأهدافها القويمة ، ترونهم يحسبون منها وينسبون إليها ، وهم لا يؤمنون بها ولا يثقون فيها ؛ بل تتجه ثقتهم دائماً إلى كل شىء يأتى من الخارج ، حتى فيما يتعلق بالقلوب والعقول ، أو يتصل بالوقائع والتاريخ . . وخذوا إن شئتم على سبيل المثال تمدحهم الدائم المتكرر بالثورة الفرنسية ؛ فهم يتغنون بها فى حفلاتهم وكتاباتهم ، ويعتبرونها أكبر حادث قرر حقوق الإنسان ، وأعظم ناشر لمبادىء الإخاء والحرية والمساواة . . وكذبوا الله ثم ضلوا ضلالا بعيدا . . إن الشمس عند أمتهم فكيف تركوها إلى المصباح الضئيل ، وإن السبق لدينهم العظيم الذى ينتسبون إليه ، فكيف يقدمون عليه لاحقا لا يرتفع عن مرتبة الأقزام والذيول ؟!

لقد سبق الإسلام ثورة فرنسا بأكثر من ألف عام فى تقرير حقوق الإنسان ، والدفاع عنها بقوة وإيمان ، والحرص عليها مع حياطتها بعوامل السلام والأمان ، ولم يكتف الإسلام بالنصوص يرددها ويلقيها ، أو يسجلها ويبقيها ، بل جعلها جزءا من العقيدة لا تكمل صلة المرء بربه إلا إذا أقامها ورعاها ؛ ثم طالب أتباعه بأن يجاهدوا من أجلها ، ولا يلقوا أسلحتهم إلا إذا اطمأنوا إلى تنفيذها وسيادتها ؛ كما وضعها أمام أبصارهم وبصائرهم فى كتابه المجيد يتلونه صباح مساء ، ويتدبرونه فى كل آن ، ويعبدون ربهم بترتيله مع تطبيق مافيه ، وليس بعد هذا تركيز أو إعزاز !

وحسبنا فى مبدأ الإخاء قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمه إخوانا » وقوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » : وقول رسوله عليه صلوات ربه : « وكونوا عباد الله إخوانا » ، وقوله : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » .

وحسبنا فى الحرية قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » وقول عمر وهو يترجم عن روح الإسلام الصحيح أصدق ترجمة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ! .

وحسبنا فى المساواة قوله تبارك وتعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » وقول رسوله عليه سلامه : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . وقول عمر لجبلة الغسانى حين أبى وهو ملك أن يقتص منه سوقة اعتدى جبلة عليه : إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشىء إلا بالتقوى والعافية ! . . .

وهناك بعد هذا فرق جوهرى كبير جداً بين الوثبة الإسلامية والثورة الفرنسية ، يبين لكم مدى الاختلاف بين عمل الإنسان وهدى الديان . فقد كان عمل الفرنسيين ثورة ، والثورة مؤامرة يحرض عليها الخبثاء ، وينفذها الجهلاء ، ويجنى ثمرتها الجبناء ؛ وقد كانت حركتهم حركة تمردية غاضبة صاخبة ، لا تدرى كيف تخطو ، ولا إلى أين تتجه ، فليس هناك منهاج معلوم ، ولا طريق مرسوم ؛ بل ضاق الشعب الفرنسى من ظلم حكامه وبغى طواغيته ، وترف رؤسائه وفجور كبرائه ، وجاع حتى اشتد به الألم من المسغبة

والحرمان ، فظن أنه ليس هناك أسوأ مما هو كائن ، فقام يهدم ويحطم ، ويقتل ويتخلص من الظالمين بلا تأن أو هوادة ، وأسرف فى ذلك إسرافا مشينا بلا قانون أو معدلة ؛ وشاءت الأقدار أن تنجح الثورة ، لا عن بصر من أصحابها بالعواقب ولا عن طريق التدرج فى الخطا والمراتب ، بل لأن الحظ كان مواتيا ، وانتهت الثورة بمبادئها الثلاثة التى أذاعتها فرنسا وتغنت بها ، ولكنها خرقتها ألف مرة ، ومآسى فرنسا السود فى التاريخ السابق والمعاصر مستفيضة ، تشهد بها فظائعها فى سوريا ولبنان ، وفى تونس والجزائر ، وفى غير ذلك من الأقطار ، وحديث الأفاعى طويل المدى ! . .

وأما الإسلام فقد كان على العكس من ذلك ، لم يكن ثورة عمياء بل كان إصلاحا مبصرا ، ولم يكن حركة تمردية تهدم وتحطم ، بل كان إحياء للمشاعر وبناء للمجتمع ، ولم يكن ضربة طائشة غير محددة الهدف ، بل كان صراطا مستقيما نزل به الروح الأمين ، من رب العالمين ، على قلب الرسول المبين ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور . وما أوضح الرسول وأصرحه حين يهتف فى قومه أول الدعوة قائلا : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا » .

جاء الرسول قومه يرضى ربه ، وقد بلغوا ما بلغوه من انحطاط وبوار ، فأبان لهم ماهم فيه من ضلال ، وما يجب أن يعملوا له من نجاة وخلاص ، ورسم لهم الوسائل والسبل ، وحدد أمامهم الأهداف والمقاصد : من التوحيد والفضيلة والإخاء والعزة والعبودية لله وحده ، إلى آخر ما فى الإسلام من مبادىء مقررة مصورة ، ثم غرس الرسول بنور نبوته وتأييد دعوته وربانى كلمته هذه المبادىء فى نفوس أتباعه ، حتى آمنوا بها وحرصوا عليها وعاشوا لها ، وأيقنوا أنه لابد للعالم منها حتى يرقى ويسعد ، ثم قاموا عن رشاد وسداد يجاهدون من أجلها ، ويبذلون دماءهم الزكية رخيصة فى سبيلها ، حتى حققوها فى ديارهم ، وفى الديار التى فتحوها باسم الإسلام ، على صورة لم تشهد لها مثيلا فى التاريخ ، ومن هنا يظهر الفرق الجلى الواضح بين الإسلام والثورة ؛ فالثوارث الهائجة الصاخبة قد تنجح وقد تفشل ، وقد تؤدى إلى عكس المراد منها ، وأما الإصلاح المرسوم المحدد ، المؤيد بالأدلة والشواهد ، والموثوق من حقه وصدقه ، فلا بد من نجاحه لأنه يمشى على نور ويصل إلى بلاغ ؛ ولقد جاء الإسلام إصلاحا يقنع العقول ، ويجذب القلوب ويفحم الخصوم ويرسم الطريق ، ويضع لكل مشكلة علاجا ولكل مرض دواء ، حتى ما خف من الأعراض والنوازل ، وكذلك كان من تأديب الله لرسوله فى القرآن : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من من المشركين » .

ولعل هنا عظة كبرى يجب أن نأخذها عن الإسلام ، فالإسلام لا يريد من القادة أينما كانوا أن يسيروا فى طرقهم صما وعميانا ، ولا أن يتصرفوا بلا قاعدة أو منهاج ، بل لابد من معرفة الطريق أولا ، أين يبدأ وأين ينتهى ؛ ثم الإيمان بتوصيله ، ثم الوثوق باستقامته ، ثم الثبات عليه ، وبذل الجهد والطاقة لبلوغ نهايته أو الشهادة أثناءه ؛ فليت الذين يضعون فى أيديهم مقاليد أمة محمد فى العالمين يأخذون لأنفسهم درسا أى درس من هذه العظة ، حتى يرسموا لأنفسهم خطة ويضعوا لأمتهم منهاجا ، بدل أن يسيروا خاضعين للظروف والمناسبات . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الإسلام القيم الذى هدى الملايين لايزال هو الإسلام : « لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . وإن الإسلام الذى اهتدت به الملايين لايزال صالحا لهداية ملايين أخرى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ... وهو لايأتيكم باطشا بل مناقشا ، ولا يدعوكم إكراها أو إرغاما ، بل طوعا وإكراما : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم » . .

وإن لكم فى هدى الإسلام لغنى عن دعوات تنهض ثم تتعثر ، وشجيرات تنبت ثم تتكسر ، وإن لكم فى صلاحه وإصلاحه لوقاية من نزوات تشط وتنحرف ، أو شطحات تجرف ثم تنجرف : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه ترجعون » .

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قول هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

أحمد الشرباصى
المدرس بالأزهر الشريف